نظرة في حاضر الاسلام

بقلم الاب لامنس اليسوعي

٢

ومهما يكن من أمر فان عدد المسلمين يظهر على ازدياد متواصل ، وقد قدّرهم الاستاذ ماسينيون في آخر السنة الفائتة ، بـ ٢٤٦ مليوناً[١] . ولما لم يكن من احصاء دقيق في اكثر البلاد الاسلامية ، فاننا نرى هذا التقدير ادقّ ما صُنع من نوعه ، واجدره بالاقتراب من الحقيقة . على ان الاستاذ ماسينيون نفسه يُقرّ[٢] بان احصائيات الحكومة الوهابية « زيدت بمعدّل مائتين في المائة » (كذا !) ولكن هذا لم يمنعه قبولها في مجموعه عن اهل العالم الاسلامي ، وعن سكان جزيرة العرب . وكان التقويم نفسه قد ذكر ، في السنة ١٩٢٦ ، مجموعاً لعدد المسلمين يبلغ ٢٢٧ مليوناً . فما هي اسباب هذه الزيادة المهمة ، اي زيادة عشرين مليوناً في اربع سنوات ؟

من اسبابها الاولية زيادة المواليد . وهنا يجدر بنا الانتباه الى امر اشرنا اليه سابقاً[٣] وهو ان المسلمين ، ما عدا نحو ٣٥ مليوناً منهم ، يعيشون جميعهم في بلدان خاضعة لسلطة الدول الغربية إمّا مباشرة او عن طريق الحماية او المراقبة او الانتداب . وقد ظهر ان المقاطعات الاسلامية المستقلة يظلّ عدد سكانها على ما هو ، ان لم يتناقص شيئاً فشيئاً ، بسبب الحروب الاهلية ، وتكاثر وفيات الاطفال ، وغير ذلك من الاوبئة المجتاحة . هذه بلاد الجزائر التي لم يكن يتجاوز سكانها المليون سنة ١٨٣٠ ، نراها اليوم ، بعد مئة سنة مرّت على الحكم الاوربي فيها ، وقد زاد عدد اهليها حتى بلغ خمسة اضعافه . ويمكننا القول نفسه عن جزيرة جاوى ، من املاك هولندة ، فان سكانها كانوا يبلغون ، سنة ١٨١٢ ، من اربعة الى خمسة ملايين . فلم يمضِ عليها مائة سنة ، حتى بلغوا سبعة اضعاف ما كانوا عليه ، فتجاوزوا الثلاثين

١) *L'annuaire du monde musulman, 3e édition, Paris. 1930, Leroux.*

٢) الكتاب المذكور ، في حاشية الصفحة ١٠٥

٣) راجع كتابنا *Islam, croyances et institutions, p. 241.*

مليوناً . فاذا قابلنا حالة هذين القطرين بحالة بلاد الافغان المستقلة ، وما يزل بسكانها من مصائب الحروب الاهلية ، والمجاعات ، والاوبئة ، تحققنا فضل الادارة الغربية ، وعملها في تحسين معيشة المسلمين وزيادة عددهم .

وسبب ثانٍ في زيادة عدد المسلمين ينتج عن ان هؤلاء يقومون بنشر الدعاية لدينهم ، فيستميلون بعض جيرانهم من الزنوج في افريقية ، ومن ابناء اللفوف السفلى في الهند . وقد دفعت الرغبة في نشر الدعاية الاسلامية بعض ذوي الاقدام منهم الى تأسيس مدارس خاصة يُربّى فيها المرسلون . فرتبوا فيها صفوف اللاهوت والآداب ، وطرق التمارين الجدلية يتمرّن فيها المرسلون على المناظرات الدينية . وأنشأ فيها مجلات خاصة بنشر الدعاية . واشهر هذه المدارس مدرسة الشيعيين في لكنهو بالهند ، ومدارس الاحمدية في قاديان ولاهور ، بالهند ايضاً . اما في مصر فان مدرسة « دار الدعوة » التي أنشئت سنة ١٩١٣ في جزيرة الروضة (القاهرة) لم تعش سنتين . هذا واننا نفتقر الى معلومات واحصائيات دقيقة عن اعمال الارساليات الاسلامية ، وعدد ما يكتسبونه بغيرتهم من المسلمين الجدد . ولا يكفي في ذلك افتخار الاحمدية ، ولا مناداتهم بالنصر والظفر ، ولا احتفالاتهم في جامعهم في برلين او قرب لندرة ، كلما دان احد افراد الانكليز او الالمان بالدين الاسلامي .

اما التعليم القرآني فاننا نراه في تأخر مستمرّ ومطرد حتى في البلاد الاسلامية المستقلة . واجلى مظهر لذلك تطوّر التعليم الرسمي ، ولا سيما في المعاهد العالية والثنوية ، فهو يتجرّد شيئاً فشيئاً من تأثير الدين حتى يُصبح لادينيّاً محضاً كما هي الحالة في تركية . وقد مدّ دعاة التطوّر العصري اصابعهم حتى داخل الجامع الأزهر ، فاغتنموا حاجته الى الاصلاح ، وتدخّلوا في ادارة الدروس وتعديل البرامج التي حُوّرت مرّات دون نتيجة تُذكر حتى غدا تأثير ذاك المعقل العلمي على شفير هاوٍ ، فقد في عشرين سنة ، ثلاثة اخماس طلّابه . وهكذا القول عن مدرسة «الزيتونة» ، وهي اعلى مدرسة دينية في تونس . واذا اضفنا الى ذلك الروح العصري السائد في الجامعة المصرية الجديدة ، والمستمدّ مبادئه من النقد الغربي ، وفهمنا انه ابعد من ان يثبّت الشيعة الاسلامية في

مبادئها الدينية وعقائدها ، ادركنا الصدمة القوية التي يعانيها اليوم الاسلام التقليدي . واننا نذكر ، بهذه النسبة ، القلق الذي احدثته ، لسنوات قليلة ، مؤلفات الاستاذ طه حسين العلمية ، وهو من خريجي الازهر القدماء ، ومن اساتذة الجامعة المصرية الحاليين .

وحتى ايامنا هذه ، كان السنيون يتفقون جميعهم على تفسير القرآن ، على ان السلفية ، وهم الاصلاحيون المحافظون الذين اشرنا اليهم سابقاً ، اخذوا يضعفون هذا الاجماع بكثرة ما يدخلونه من آراء جديدة في التفسير والتأويل ، قصدَ ان يطبقوا القرآن على ذوق العصر والافكار العصرية . فخالفوا جميع الائمة القدماء بزاعم غريبة عن روح التقليد ، منها ان القرآن يُشير بوحدة الزواج (٤ : ٣) ، ومنها انهم يرون نسخ الآية ٢٣٠ من السورة الثانية . هذا فضلاً عن الميول الظاهرة في اكثر انحاء العالم الاسلامي للتخلص من المحرّمات القرآنية الشديدة في ما خصّ فائدة المال ، وآراء الائمة الاقدمين في الإدانة والربا . فانشئت مصارف كثيرة برؤوس اموال وادارات اسلامية خالصة ليس في تركية فحسب ، بل في مصر ، وجاوى ، والهند ، وغيرها من الاقطار الاسلامية . وتقوم هذه المصارف بجميع اعمال البنوك المعروفة من استقبال المال وادائه بالفوائد المقرّرة ، كما انها توزّع ارباحها على مساهميها كالمصارف غير الاسلامية . وكذلك يشترك كثير من المسلمين بشركات التأمين على انواعها المختلفة . وكلها اعمال مخالفة للشريعة والقرآن .

وفي العالم الاسلامي اليوم حركة نسوية قوية ترمي الى نزع الحجاب ، واعتاق النساء ، وتحتجّ على استئثار الرجل وحده بحقّ الطلاق ، وعلى انتقاص حقّ المرأة بالارث والشهادة . على ان هذه الحركة المتقدّمة تقدّماً عظيماً في تركية ، لا تزال تلاقي العقبات والمعاكسات في بلاد العرب ، وسورية ، والعراق ، والجزائر ، ولا سيما مراكش . اما في مصر فقد ابتدأت الدعاية النسوية على يد المرحوم قاسم امين ، سنة ١٨٩٩ ، وسارت شوطاً بعيداً منذئذٍ ، ومديرتها اليوم السيدة هدى شعراوي باشا . وقد شاءت دمشق ان تجاري مصر في هذا المضمار فعقد نساؤها مؤتمراً في الصيف الماضي ، واحتججن كلهنّ على الحجاب

ولبس الخنار احتجاجات شديدة ، ولكن لم يكن منهنّ من تجرأت فرفعت زاوية من خمارها . ومهما يكن من أمر ، فان الفكرة قد بُثت ، وبُدئ بحركة يؤمل اصحابها انها ستمتدّ في المستقبل القريب . وقد حدثنا قراءنا سابقاً (المشرق ٢٦[١٩٢٨] ٣٦٦) عن تأليف الآنسة نظيرة زين الدين في هذا الموضوع.

* * *

لقد اكتفينا ، في ما تقدّم ، بعرض حالة الاسلام الحاضرة ، على طريقة وضعية بحتة تجنبنا فيها كلّ ما يُشتمّ منه رغبة في المناظرة او ميل الى الجدال. وهي نظرة تظهر كيف يجتهد الاسلام بالسير مع الرقي العصري واتباع الافكار العصرية ، وتظهر خصوصاً تأثير هذه الافكار في الاوساط الاسلامية ، ولا سيما في الشبيبة المتعلّمة . وعلى الجملة نرى ان الاسلام واقف بازاء معضلة مهمّة دقيقة.

فاذا استثنينا بعض المحافظين القدماء ، امكننا القول ان جميع المسلمين يشعرون بضرورة الاصلاح ، وبالحاجة الى الاتفاق مع الرقي العصري . وهو امر تتعلّق به حياتهم او موتهم . فقد طالما عاش الاسلام حياة العزلة والانفراد . اما اليوم فلا يمكنه الاستمرار على تلك العزلة ، ولا البقاء بعيداً عن الحركة العامّة التي تدفع بالمجتمعات الى مجال الحياة المشتركة فتجدّدها . يجب عليه ان يسير مع التيّار العصري ، والّا كان عرضةً للصدمة فالسقوط. هذا ما تحقّقه الاتراك ، بعد ان اهابت بهم روح الوطنية ، فهبوا يتخذون المؤسسات الغربية بكاملها قصدَ ان يحاربوا اوربة بسلاحها نفسه ، فيمنعوها عن مزاحمتهم في عقر دارهم . اما باقي المسلمين ، وهم لا يقلّون وطنية عن الاتراك ، فانهم يتمنّون ، قبل كل شيء ، بتأمين معتقداتهم . ولهذا فهم يودّون ان يختاروا من المؤسسات الاوربية ما يوافق القرآن ويحفظ روحه سالمة.

فهل ينجحون في هذا الاختيار ؟ وهل يتمكنون ، قبل فوات الحين ، من تلافي التأثير السيّء المفسد الذي تؤثره المبادىء العصرية في الشبيبة الاسلامية ؟

ان المعضلة كلها في هذه النقطة ، وسيرينا المستقبل كيف يتوفق قادة الافكار الاسلامية الى حلها.